

كيف ينبغي أن يوجه العلم والعلماء لتحقيق تعاون عالمي

بتلم الدكتور على مصطفى مشرفة بك

عميد كلية العلوم

إن التعاون العالمي بين العلماء قائم منذ سنين . فالعلماء في مشارق الأرض ومغاربها يكونون أسرة واحدة تربطهم روابط لا انفصام لها . فالعالم الأمريكي في معمله يتم بحثا وينشره في مجلة أمريكية باللغة الإنجليزية ، وبعد مدة وجيزة تكون هذه المجلة في أيدي علماء أوربا وآسيا وأفريقيا وأستراليا فإذا هم عاكفون على دراسة هذا البحث ثم هم بعد ذلك معقبون عليه أو مخصصون له . وقد يحدث أن يشر هذا البحث اهتمام عالم في آسيا فيقوم بتجربة متممة لتجربة العالم الأمريكي وينشر نتائجها في مجلة يابانية بلغة أخرى كاللغة الألمانية ثم يتلقف الكرة بعد ذلك عالم نرويجيا ينشر بحثه باللغة السويدية وهكذا ، بل إن الذي يحدث في كثير من الأحيان هو أن يشتغل العلماء في قارات البسيطة المختلفة في بحث مسألة واحدة فتكون فرق من العلماء في فروع العلم تجمعهم الرابطة العلمية وإن تفرقوا على سطح المعمورة .

هذا التعاون العلمي قائم بين العلماء منذ سنين وقد نشأ عن تنظيمه والعناية به في أواخر القرن الماضي وفي القرن الحالي ازدياد عظيم في تقدم العلم ووفرة في الانتاج العلمي ولعلكم تدرقون أنه عدا تبادل المجالات العلمية بين الأمم المختلفة توجد وسائل أخرى لتحقيق تعاون العلماء كعقد المؤتمرات وتبادل الأساتذة بين الجامعات وإرسال البعثات العلمية وانتخاب أعضاء أجناب ومراسلين في المجال العلمية وغير ذلك من وسائل التعاضد والتساند . وقد نشأ عن هذا كله أن صار العلماء في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون إلى أنفسهم كأسرة واحدة يعين كبيرها صغيرها ويعطف عليه ويحبل صغيرها كبيرها ويسترشده ، وللجميع غاية مشتركة هي رعاية شجرة المعرفة ونماؤها وإحلال نور العلم محل ظلام الجهالة . وفي وسط هذا كله يوجد التنافس السليم المشروع بين العلماء جميعا تنافس لا يشوبه حقد أو أثرة حتى إذا ما وصل عالم إلى الكشف عن حقيقة وفق في الوصول إلى ما لم يوفق إليه غيره أكبر العلماء نبوته وعبقريته وجده وإخلاصه وأحوه المكان اللائق به بينهم . ولا شك في أن حجر الزاوية

في بناء هذا الجهود التعاوني إنما هو حب العلماء للثق وشغفهم به وإخلاصهم في طلبه فهذا هو الذي يلهمهم أعمالهم ويهديهم سبلهم .

ومما تجب ملاحظته أن هذا التعاون بين علماء الأمم المختلفة لم يكن ليتحقق أو لم يسبته تنظيم التعاون بين علماء الأمة الواحدة وهذه حقيقة أرجو أن تولوها ما تستحقه من عناية لأنها تنطبق لا على التعاون العلمي وحده ولكن على كل تعاون منتج بين الأمم ، فقبل أن توجد الجمعيات التي تنظم المؤتمرات التي تشترك فيها الدول المختلفة وجدت الجمعيات التي تربط كل منها بين علماء الدولة الواحدة . وبعبارة أخرى قد كان من الضروري أن ينشأ الجمع العلمي في باريس والجمعية الماكية في لندن والجمع العلمية في واشنطن وطوكيو قبل إنشاء الجمعيات الدولية الدائمة في جنيف وبروكسل .

وخلاصة ما تقدم أن التعاون بين العلماء حقيقة واقعة وأن أساليب هذا التعاون قد درست ونظمت بحيث لا ينقصها إلا التطور الطبيعي دون مساس بالأسس التي بنيت عليها . إلا أن هذا التعاون محدود المدى فهو لا يخرج عن دائرة العلوم الأكاديمية وهي دائرة كما تعلمون تكاد لا تمس حياتنا اليومية ، فالعلماء يشتغلون في ما ملوهم ومكتباتهم وجامعاتهم ويحضرون اجتماعات جمعياتهم العلمية ويظالعون نتائج أبحاث زملائهم من العلماء ثم هم يحضرون المؤتمرات الدولية ويتعاونون جميعا على غرضهم المشترك وهو الوصول إلى المعرفة . وهم في هذا كله بعيدون عن مشا كل السياسة والحرب والاجتماع لا يعتون بأمرها إلا بقدر ما يهني الفرد العادي أو دون ذلك . لا شك في أن موقف العالم هذا من المجتمع موقف تقليدي قد تحدد في القرون الوسطى بل قد تحدد منذ العصر الإغريقي والعصر الإسلامي ولعل القراء يعرفون الحكاية التي تروى عن اقليدس إذ دخل عليه رجل فوجده يرسم دوائر ومثلثات وينعم النظر في أشكالها الهندسية فأله ما الفائدة من هذا كله ؟ فكان رد اقليدس أن صفق بيديه فحضر خادمه فقال اقليدس للخادم أعط هذا الرجل دينارا . ومغزى هذه الحكاية أن العالم إنما يطلب العلم لذاته شغفا به وجبا فيه ، فن كان يريد العائدة المادية فليطلبها عن طريقها وليترك العلماء منهمكين في بحوثهم مقبلين عليها ناعمين بها . هذا هو الموقف التقليدي للعلم إزاء المجتمع وهو موقف سليم في حد ذاته أو أنه كذلك من وجهة نظر العلم إذ لا شك في أن النفس البشرية تواق إلى المعرفة ، وحب الاستطلاع غريزة لا تقل في أهميتها أو في عمقها التقى عن غيرها من الغرائز البشرية وليس لإنسان أن يعلى لأى عمل من أعمال البشر قيمة أعظم من قيمة الانشغال بالعلم .

ولكن أمن الممكن أن يبقى العلماء في صوامعهم متجاهلين ما بين عملهم وبين الجهود البشرية الأخرى من صصلة تزداد قوة بمرور الزمن ؟ كلا يعلم أن الصلة بين نتائج البحوث

العلمية وبين حياتنا اليومية إذا أمكن إهمالها أو التغاضي عنها في القرون الوسطى لضعفها في ذلك العهد ، أقول إذا أمكن ذلك في القرون الوسطى فقد صار غير ممكن في عصرنا الحالى فكل ما يحيط بنا في حياتنا الحديثة أو جلّه مرتبط بالعلم بل ونتائج العلم والعلماء إذا استطاعوا أن يعيشوا في بروجهم العاجية في القرن السادس عشر دون أن تزجهم ضوضاء الحياة المحيطة بهم فانهم لن يستطيعوا ذلك اليوم وقد ارتفعت جلبة حياة الأمم والأفراد بحيث لم تعد تبقى العلماء منها بروجهم ولا صوامعهم . والغريب في هذا الأمر أن هذه الجلبة التي أصبحت تنلق راحة العلماء إنما هي نتيجة لما فعلته أيديهم فهم مع حرصهم الشديد على عيشتهم المساندة ليتفرغوا للعلم والبحث العلمى قد أعطوا المجتمع نتائج بحوثهم فلم يلبث أن استخدم هذه النتائج في إحداث تلك الجلبة التي تعكر على العلماء صفوفهم وتكدر هدوءهم ، والأدهى من ذلك أن هؤلاء الذين يحدثون الجلبة بطياراتهم وسياراتهم ويعكرون صفو الحياة بدباباتهم ومدافعهم قد بدأوا يحدثون نوعا جديدا من الضجج في أقوالهم ، فهم يزعمون أن هؤلاء العلماء الوادعين المساندين هم المسئولون عن هذه الآلات المستحدثة التي تضج بها الأرض والسماء وهم يقومون اتبعية على العلم والعلماء فيما استحدثوه من آلات مهلكة وأدوات مفرقة . وأظن القراء يوافقوننى على أنه إزاء هذا كله لم يعد من الممكن للعلم أن يحتفظ بوقفه التقليدى إزاء المجتمع وأن يبقى العلماء قابعين في صوامعهم وبروجهم العاجية بل صار عليهم أن يتبصروا ما حولهم وأن يسيروا النظر في موقفهم إن لم يكن لسبب آخر غير الاحتفاظ بهدوءهم وراحة بالهم . على العالم إذن أن ينظم العلاقة بينه وبين المجتمع وعلى العلماء أن يدرسوا هذه العلاقة وأن يحددوا ما ينبغى أن يكون عليه الحال بين العلم والمجتمع وأن يوجهوا مجهوداتهم في هذا السبيل توجيها صحيحا يكفل للعلم النماء ويؤدى بالبشر إلى الرخاء .

ويظهر لى أن أول تقطة جذيرة بالبحث في هذا الصدد إنما هي المسئولية الأخلاقية التي تقع على عاتق العلم والعلماء ، أو يظن أنها تقع على عاتقهم إزاء تلك الآلات والمخترعات الجهنمية التي ترمى إلى إهلاك البشر وتعذيبهم ، وهنا يجدر بالمفكر أن يفرق بين العلم والبحث الذى يرمى إلى المعرفة لذاتها وإلى نوع آخر من المجهود البشرى له صلة بالعلم وإن لم يكن منتهى فى شيء ، وأقصد به الاختراع أو العلم التطبيقى كما يسمى . ويتميز العلم التطبيقى عن العلم الصحيح أو العلم البحثى بالنرض الذى ينشده والهدف الذى يسعى إليه . فالاختراع أو العلم التطبيقى لا ينشد الحقيقة ولا المعرفة وإنما يطلب شيئا آخر هو استحداث آلة أو وسيلة تمكن صاحبها من فعل معين كالطيران فى الجو أو النوص فى الماء أو تدمير هدف أو تسميم نفر من الناس أو غير ذلك من الأغراض التي يسعى إليها الساعون . والمنقطة الجوهرية فى هذا الموضوع أنه لولا المعرفة التي يصل إليها العلماء لما تمكن المخترع من استحداث آله ، فإذا كانت الآلة ضارة أو مهلكة جعل العلم مسئولا عنها بطريق غير مباشر ولاشك

في أن المسؤولية الحقيقية في استخدام مثل هذه الآلات إنما تقع على الذين يقومون على صنعها وعلى استخدامها في التدمير والتعذيب . فكل علم يمكن أن يستخدم في الخير كما يمكن أن يستخدم في الشر ، وكل ما يمكن أن نطلبه الى العلماء أن يبينوا الأخطار التي تنجم عن تطبيق علمهم في اختراع مثل هذه الآلات . وعلى القائمين على تنظيم التعاون العالمي أن يسنوا القوانين لدرء هذه الأخطار وأن يعاملوا من تحدته نفسه باستخدام نتائج العلم في التدمير والتخريب معاملة المجرم سواء بسواء وأن يكون لديهم من سلطة التنفيذ ما يمكنهم من معاقبة هؤلاء المجرمين والتضامن عليهم وقطع دابرهم . والنظام القائم الآن في الأمم المختلفة يسمح لكل مخترع باختراع ما يشاء من آلات كما يسمح له بتسجيل اختراعه بحيث يصبح له الحق في الحصول على الفائدة المالية التي تنشأ عن استخدام اختراعه .

ولا تفرق القوانين الحالية بين المخترعات المختلفة ضارها وفائدها . وأكثر من ذلك تقوم كل حكومة بتشجيع المخترعين في استحداث وسائل التدمير والتخريب ، وترصد لذلك الأموال في ميزانياتها ، ويتسابق الجميع في هذا الميدان تسابقا عنيفا . ولا شك في أن هذا النظام فاسد يجب تغييره إذا كانت الأمم جادة في طلب التعاون العالمي كما يجب أن يحل محله نظام آخر مبني على تفرقة واضحة بين ما هو مشروع وما ليس بمشروع في الاختراعات والوسائل المستحدثة ، فإذا وضع نظام كهذا وتعاونت الأمم على تنفيذه بإحلاص ، وكانت لديها الوسائل الناجعة لضمان تطبيقه ، أقول إذا حدث كل هذا فإن المخترعين سيجهون باختراعاتهم في النواحي المشروعة ، وتكون بذلك قد وجهتهم توجيها صحيحا نحو فائدة البشرية ، ويجب أن تعامل الحكومات في هذا معاملة الأفراد سواء بسواء . فالحكومة التي تشجع المخترعات الضارة تعتبر حكومة مجرمة ويمال بينها وبين غرضها الذي بما يكون لدى القائمين على تنفيذ هذا النظام من وسائل الساطة المشروعة . ولست أزعم أن هذا النظام كفيل بمنع كل اختراع ضار بالبشرية ، فالقانون والعقوبة لا يمتنان من ارتكاب الجريمة على وجه الإطلاق ، ولا شك في أن بعض الحكومات أو بعض الأفراد ستحدثهم نفوسهم الشريرة بالخروج على القانون وارتكاب جريمة لا اختراع الموهلك إلا أن هؤلاء سيكونون أقلية يستجيبها الرأي العام بين الأمم ويوقع بها العقاب المنصوص في مواد القوانين . وأهل بعض القراء سيظنني مستغرقا في الخيال حين أتكلم عن معاقبة الحكومات إلا أنني كما ذكرت في أول المقال لا أتعرض لموضوع التعاون بين الأمم من ناحية إمكانيته أو استحاله ، بل أتكلم عما ينبغي أن يكون ، وإذن فلا يمكن أن يقوم اعتراض على قول مبني على افتراض عدم احتمال التعاون .

إذن فليسلم إنما يرمى إلى المعرنة ، ولا يمكن أن يتمم بالتخريب والمخترعون ومن يقومون على تمويلهم وتشجيعهم هم الذين تقع عليهم التبعة الأولى ، وهؤلاء إذا نظمت

أمورهم ووضع لهم قانون نافذ ترتضيه الأمم وتسهر عليه استقام الحال . هذه هي الخلاصة . ولكن أليس معنى هذا أن العلماء إنما يتخلصون بذلك من كل تبعية وإيقونها على غيرهم خطأ أم صواباً ثم يتركون لأمر والتنظيم لغيرهم ويعودون إلى صوامعهم وإلى موقفهم التقليدي إزاء المجتمع ، وإذا كان الأمر كذلك وأخشى أنه كذلك فما هو الدور الإيجابي الذي يريد العلماء أن يقوموا به في العاوان العالمى .

أذكر أنى حضرت مؤتمراً عقد في لندن حوالى عام ١٩٣٠ سعى المؤتمر الأول لتاريخ العلوم وقد حضر هذا المؤتمر نفر غير قليل من العلماء قادمين من أمم متعددة . في هذا المؤتمر سمعت الخطباء يصرون على نعمة واحدة ألا وهي أن تاريخ العلوم يجب أن يعنى به العناية كلها لأن التقدم العلمى أهم بكثير للبشرية من الحروب التى يسجلها التاريخ ، وقد كان الغرض الأول من عقد هذا المؤتمر إثارة اهتمام الناس بتاريخ العلوم وتوجيه الجامعات والمدارس نحو العناية بهذه الناحية من نواحى التاريخ . وقد ذكر الخطباء وكرروا أن العلم هو الذى أعطى المجتمع البشرى جل ما يملك من وسائل الحضارة والرفاهية وعابوا على المجتمع أن ينكر جميل العلم والعلماء فلا يحفل بأمر تاريخ العلوم فى حين أنه يعنى العناية كلها بتاريخ الملوك والأمراء وما يحدث بينهم من حروب ومعاهدات وأشياء أخرى كثيرة هى فى الواقع ونفس الأمر قليلة الأهمية تكاد تكون تافهة فى تاريخ تطور البشرية إذا قيس بتاريخ العلم والاختراع . وقد تساءل بعض المتكلمين أيهما كان أكبر أثراً فى تطور البشرية حروب نابليون أم اختراع جيمس وات للآلة البخارية؟ وماذا نرى يتلقين أطفالنا ما حدث لنابليون فى حياته العامة من أحداث حربية وسياسية بل إننا لتزيد على ذلك ما حدث له فى حياته الخاصة من أمور عادية؟ لماذا نفعل كل ذلك ولا نلقن اللشء كلمة واحدة عن تاريخ اختراع الآلة البخارية وعن حياة ذلك المخترع العظيم جيمس وات وما بذله من مجهود مضن فى عمله المجيد . رجل يقتل الذئب ويرمل النساء ويترك الأطفال نعداه بطلا ونبنى بشأنه العناية كلها وآخر يرنه عن الناس ويحلب لهم الحليب والحرية والسعادة فلا نذكره أو نتحدث عنه ! ولا شك أن هذا التساؤل ينطوى على منطق قوى وإدراك صحيح لقيمة الأشياء إلا أنى لاحظت أن هؤلاء الخطباء فى ذلك المؤتمر بالرغم من قوة مطقتهم وصحة تكبيرهم لم يصلوا إلى شئ يذكر من وراء عقد مؤتمراتهم . فالمؤتمر نظر إليه كاجتماع عادى لطائفة من العلماء تنازل أحد وزراء الدولة بافتتاحه ثم ألقى الخطب وانتهى الامتاع على ما انتهى إليه أمثاله من اجتماعات العلماء وبقيت مناهج الدراسة والامتحانات العامة فى سائر الأمم تعنى بأمر نابليون وتهمل أمر جيمس وات . وقد دار بينى وبين بعض المؤتمرين فى ذلك الحين حديث قوامه هذا : الإعراض من جانب المجتمع عن أمر العلم والعلماء وهذا الاعتكاف عن المجتمع من جانب العلماء أنفسهم . ثم تساءلنا إذا كان العلم يمنح المجتمع كل أسباب الرفاهية ، فلماذا لا يكون هو صاحب السلطان فى تنظيم

هذه الرضاية التي هو أصلها ومنبع معينها؟ ولماذا يعطى العلم للمجتمع النور الكهر بائي والقدرة الكهر بائية كهبة خالصة لوجه الله تعالى. هذه الهبة التي يقدر ريعها السنوي بمئات الملايين من الجنيهات ثم هو بعد ذلك يعود ليستجدي المجتمع بضعة قروش أو جنيهات ليصرفها في البحث العلمي. ألم يكن أولى به ألا يهب شيئا وأن يحتفظ لنفسه بكل شيء أو على الأقل أن يحتفظ لنفسه من الهبة بقدر حاجته؟ هذه هي الأسئلة التي عنت لنا ولا تزال تعن للعكر إكلما أمعن النظر في العلاقة التي ينبغي أن تكون بين العلم والمجتمع فلما أعلنت الحرب الحالية نشأ إلى جانب هذه الأسئلة سؤال آخر هام هو الآتي: أيستطيع العلم والعلماء أن يقفوا منعزلين عما هو حادث في العالم اليوم من مخريب وتدمير خصوصا إذا لاحظنا أن ما وهبوه للمجتمع من العلم هو السبب الأول الذي لولاه لما أمكن هذا التدمير.

وأليس من واجبهم وهم قوم قد جبلوا على حب الخير والحق أن يبذلوا قصارى جهدهم كي لا تتكرر المأساة الحالية وهي إن تكررت كانت في الغالب أدهى وأمر، لنفرض أن رجال السياسة ورجال الأعمال بعد هذه الحرب لم يفلحوا في أن يحققوا التعاون العالمي المنشود بين الأمم، أليس العلماء في مركز يسمح لهم بانقاذ البشرية من سوء هذه العاقبة.

قبل أن أحاول الإجابة على هذه الأسئلة سأصنف الكيفية التي يتبعها العلماء في منح ثمرات عقولهم إلى المجتمع والطريقة التي يسير عليها المجتمع في الاستفادة من هذه الثمرات. نعلم أن الأديب أو الشاعر أو المؤلف الموسيقي إذا ألف كتابا أو رواية مسرحية أو قطعة موسيقية فإن القوانين الوضعية في معظم البلاد المتحضرة تجبل لهم حقوقا مصنوعة ولو إلى حين بحيث لا يستطيع ناشر أو مخرج أو عازف أن يستفيد من هذا الإنتاج العقلي استفادة مادية بغير رضا المؤلف، هذا هو الحال في لأدب والموسيقى.

أما في الإنتاج العلمي البحث فالأمر على عكس ذلك، نفرض أن عالما كشف عن قانون من قوانين الطبيعة أو عن ظاهرة من الظواهر التي لم تكن تعرف من قبل، إذا حدث ذلك، وهو حادث في كل يوم، فإن هذا العالم يرسل عمله إلى إحدى الجمعيات أو المجلات العلمية فنشره على الملأ، ويكفي العالم من عمله باللذة الفكرية التي تعود عليه بالفخر والتكريم الذي يناله بين مصاف العلماء، وقد تمتعه إحدى الهيئات لقباً أو مدالية أو إحدى الحكومات وساما أو رتبة وإن كان من الطراز الأقل بين العلماء فربما منح جائزة نوبل وهي جائزة مالية لا تتعدى قيمتها بضعة آلاف من الجنيهات.

هذا هو كل ما يعود عليه من فائدة أدبية أو مادية، ولنفرض أن مخترعا اطعم على عمل هذا العالم المنشور في المجلة العلمية واستخدم هذا العلم الحديد في اختراع آلة ذا خطرنا وأثرها في حياة المجتمع، إن القوانين والتقاليد الحالية لا تعطي للعالم صاحب الكشف الأول

ولا للجمعية العلمية التي نشرت بحثه ولا للجامعة التي ينتسب إليها أى حق من الحقوق المدنية لآزاء هذا المخترع الذى استفاد من مجهوداتهم جميعا .

وقد حدث هذا مرارا وتكرارا بل هو حادث فى كل يوم ومن الأمثلة الظاهرة عليه الراديو أو التماخاطب اللاسلكى ، فصاحب الفضل الأول فى هذا الاختراع إنما هو العالم الاسكتلندى كلارك ما كسويل الذى قال لأول مرة بوجود أوج كهربية تنقل فى الفضاء بسرعة الضوء ثم تبعه هاينرخ هيرتز العالم الألمانى وهو الذى أثبت وجود هذه الأمواج كحقيقة واقعة ودرس خواصها وما لها من صفات .

وقد قنع كل من ما كسويل وهيرتز من عملهما بالذرة الفكرية والفخر العلمى ، ثم جاء ماركونى وغيره من المخترعين فاستغلوا نتائج أبحاثهما وأبحاث غيرها من العلماء استغلالا ماديا عاد عليهم وعلى غيرهم بالربح الوفير ، أردت أن أشرح هذه البقطة لما لها من ارتباط وثيق بالموضوع الذى نحن بصدده .

وبعد فهل نغير قوانيننا ونظمتنا بعد الحرب بما يجعل لكل عالم ملكية ما يصل اليه من كشف فى بحوثه العلمية . أم هل نحول مجامعنا وجمعياتنا العلمية الى شركات مساهمة تفرض ضريبة على كل من يستخدم نتائج البحث العلمى لفرض من الأغراض المادية .

يعلم القراء أنه فى مصر القديمة كان العلم وقفا على نفر قليل من رجال الدين وزعماء الدولة ففى ذلك العمر البعيد المحوط بكثير من الشك كان رجال الدين ورجال الدولة يعملون ما للعلم من قوة وسلطان وينظرون اليه كسلاح يستعينون به على الحكم وينخضعون به الناس للكنيسة والدولة .

حكذا كانت حالهم فى ذلك العهد ولاشك فى أننا اليوم وإن أعجبنا بدعاء هؤلاء الزعماء ومقدرتهم إلا أننا بعيدون كل البعد عن أن ننظر الى العلم هذه النظرة الشاذة البغيضة ، بل نحن على التقيض من ذلك ننظر الى العلم نظرتنا الى الهواء أو الى النور ونجعله حقا طبيعيا لكل انسان ونرى فى انتشاره بين الناس تعميما للتبر وقضاء على شر من أعظم الشرور وافكها بالبشرية وهو الجهل .

فإلهم إذن نور يجب أن يشع وخير يجب أن يعم وأول واجب على العلماء إنما هو حمل شعلة العرفان ونشر ضيائها وتبديد غياهب الجهالة ، وليس يعقل أن نرجع فى تشكيلنا الى عصر المصريين القدماء أكثر من أن نرجع الى عهد السحر والتنجيم .

ومع هذا فإننا نشعر جميعا أن القدرة الناشئة عن العلم يجب ألا تكون فى متناول كل سفيه . يعث بها كيف شاء بل يجب أن تحاط بسياج يحميها ويعصم الناس من كل عبث بها

وبالناس من كل محاولة لاستخدامها في الضار دون النافع فالشخص الذى يمنح القوة والسيادة
يحب فى الوقت ذاته أن يؤتى الحكمة وأن يكون له مثل عليا تعصمه من البطش وتقي الناس شر
طغيانه والافسدت الأرض وعم الخراب .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نعلم أن العلم والحكمة مقترنان من قديم الزمان حتى
وكادان يترادفان والفسفة مرادف ثالث لهما وقد نشأ العلم الحديث كفرع من فروع الحكمة
أو السلفة سمي الفلسفة الطبيعية ولا تزال الجامعات الى اليوم تستخدم لفظ الفلسفة بمعنى
العلم حين تمنح درجات الدكتوراه فى الفلسفة ، فقد كان العلماء ولا يزالون يتعلون بصفات
نفسية وحقية تعتبر ملازمة لصفاتهم كعلماء . فالعلم والفضل والخلق القويم كل هذه توائم
لا انفصال لها . وإذن فلا يكفي أن يعطى العلماء ناموسهم الى المجتمع مجردا بل عليهم أن يعطوا
الى جانبه تلك الصفات الخلقية السامية التى هى جذيرة بانهم وقرينة ، بل متممة له . وليس
هذا المعنى جديدا ، بل هو نابع ومبرور فمدارسنا وجامعاتنا وان كانت دورا للعلم إلا أنها
فى الوقت ذاته دور للأخلاق . وتمتين المعرفة منذ الصغرى يقترن بالتربية التى هى القويم
أو تكوين الخلق كما يقول المربون . ويظهر لى أن فى هذا المعنى البسيط مفتاح المشكلة
التي نحن بصدد حلها . فإساءة التى نشاهدنا حولنا اليوم والعكس الذرع بالبطشة والآلات
المهالكة التى تنسب الى العلم كل أولئك مرتبط ارتباطا جوهريا بوجود ائتمان العلم بالقانون
الخلقى . أو بعبارة أخرى إن هذا التدمير ومذه الفظائع هى نتيجة فصل العلم عن القانون
الخلقى . والعلماء لم يعد لهم أن ينظروا الى أنفسهم كطلاب للمعرفة فحسب بل عليهم أن
يذكروا واجبا آخر هو الدفاع عن المبادئ الخلقية القويمة وكما أن على العالم أن ينشر علمه بين
الناس وأن يحميه ويدافع عنه بل ويضحى من أجله ، كذلك عليه فى الوقت ذاته أن ينشر
المبادئ الخلقية القويمة وأن يدافع عنها ويضحى من أجلها وإذا ذكرت لأخلاق والمبادئ
الخلقية فإنما أقصدها بأوسع معانيها فالقانون الخلقى ينظم سلوك الأفراد كما ينظم سلوك
الجماعات وهو ينظم سلوك الأمم المختلفة فيما بينها ولا شك فى أننا فى حاجة اليوم الى تطبيق
المبادئ الخلقية فى مدى أوسع ، ففى الماضى كانت الحياة تختلف اختلافا بينا عما هى عليه
الآن وكان سلوك الفرد مع أخيه أو جاره محدودا بظروف الحياة فى تلك العصور وكان سلوك
مجتمع نحو آخر أكثر تحديدا . أما اليوم فقد اتصل الأفراد فى المجتمع الواحد اتصالا وثيقا
كما اتصلت الأمم فى أمحاء الممورة وسهلت وسائل الانتقال وأصبح من اليسير التراسل
والتناطح بين الدارات كل هذا قد وسع مدى تطبيق المبادئ الخلقية وأنشأ مشا كل
جديدة لم تكن لتخطر فى الماضى على بال . وقد ترك تنظيم هذه الأمور بما للعهدفة البامة
أو للأمم فيما بينها تحكم فيه القوة ، أو لرجال السياسة والمشرعين يعقدون المؤتمرات عساحم
يصلون الى حل عملى يرضى القوى ويسلم به الضعيف وقد نشأ عن ذلك مجموعة من القوانين

الدولية الخاصة والعامة رهما كانت خير مثال على مقدرة الانسان الانهائية على أن يناقض نفسه . لا أقول هذا لأقلل من شأن الجهود الذى بذل بل بالعكس أنى أعلم أن هذا الجهد قد بذل في ظروف مضنية كما أن الذين قاموا به لا يمكن أن يوجه اليهم أى لوم لأنهم قاموا بواجبهم على قدر الاستطاعة وإنما يوجه اللوم ان كان هناك لوم إلى شخص معنوى مجهول لأنه لم يخرج لنا كتابا يبين فيه حكم القانون الخلقى القويم في هذه الأمور . ولا يمكن الاعتماد على المؤتمرات الدولية لتسوية هذه الأمور دون قانون خلقى مسلم به من الجميع لأن هذه المؤتمرات كما تعلمون كثيرا ما تصل الى نتائج لا تتفق وقانون العدالة البشرية كما أنها في بعض الأحيان تخفق في مهمتها إخفاقا تاما ولعل القراء يذكرون مؤتمر المواصلات السلوكية والاسلامية الذى عقد بالقاهرة عام ١٩٣٨ والذى أخفق في تحقيق الغرض المنشود منه . فن المسائل التى كان يطلب الى هذا المؤتمر تنظيمها مسألة الإذاعة الاسلامية ومنع الاختلاط والتشويش بين محطات الإذاعة في أنحاء المعمورة وهى مسألة لو تركت الى علماء متزهين عن الغرض لما عجزوا عن حلها على أساس قانون العدالة بين الأمم .

وقبل هذه الحرب نشأت حركة بين العلماء في إنجلترا وفي بعض البلاد الأخرى ترمى إلى إبراز ما هو كامن في نفوس الجميع من قواعد أخلاقية ثابتة أساسها حب الحق وحب العدل وحب الإنسانية وقد نشرت مجلة (Nature) الإنجليزية وهى مجلة لها مقامها في العالم العلمى ، نشرت هذه المجلة مبادئ اقترحت لتكون نوعا من الدستور بين العلماء ولم يكن في هذه المبادئ شئ جديد بل جاءت كما قلت مبرزة لما هو كامن في النفوس ولما هو مفترض عادة بين رجال العلم بل وبين رجال الفضل ورجال الأخلاق والمروءة ، في الأمم جميعها ، هذه المبادئ الكامنة في النفوس دعت الحاجة إلى إبرازها وتدوينها ونصها نصا صريحا صيانة لها من العبث ولتكون أساسا وانحيا يعمل به كل عالم ويدعو اليه ولا تكاد هذه المبادئ كما تقدمت تخرج عما هو مسلم به من الجميع ، كبداية حرية الفكر ومبدأ حرية العمل بما لا يتعارض ومصصلحة الغير ، ومبدأ تحكيم العقل والمنطق فيما يشكل من الأمور ، ومبدأ تطلب العدالة والانتصاف في المعاملة بين الناس ، ومبدأ عدم الإضرار بالغير وأمثالا من القوانين العامة التى يسلم بها كل عاقل منصف . هذه الحركة الخلقية كما تصحح أن نسميها نشأت بين العلماء لأنهم شعروا بأن عليهم مسؤولية لم يهد من الممكن التناضحى عنها هى مسؤولية الدعوة إلى الخير والحق والدفاع عنهما وبعد نشر هذه المبادئ في مجلة (Nature) وردت خطابات ورسائل متعددة من جميع أنحاء العالم نشر بعضها في نفس المجلة وكلها معضدة للدكرة وبمجرد ما ، ثم جاءت الحرب فالتجه العلماء في بلادهم المختلفة نحو مساعدة أممهم على كسبها وبذل قتارى ما يستطيعون من جهد عقلى وجثمانى في خدمة البلاد التى ينتمون إليها ، ولعل القراء يعلمون أن من أميز مميزات هذه الحرب كثرة عدد العلماء في فروع العلم المختلفة الذين يقومون بالخدمة

القبولية في ميادين القتال أو في القيادات العامة أو في الأسلحة الفنية المختلفة للجيش البرية والأساطيل البحرية والجوية ، فأساتذة الجامعات اليوم والباحثون في العلم والمتخصصون الفنيون في الطبيعة وفي الكيمياء وفي الجيولوجيا بل والشباب المنتخرج حديثا من الجامعات كل يستغل في دائرة اختصاصه ويستخدم مواهبه في خدمة أمته ، وقد قابلت أخيرا أكثر من واحد من أساتذة الجامعات البريطانية في مصر فوجدتهم يرتدون ملابسهم العسكرية ويقومون بأعمال فنية تناسب ومقدرتهم الفكرية فالعالم الرياضي يستخدم علمه في حل المسائل الرياضية الكثيرة التي تنشأ عن الحرب والعالم الجيولوجي كذلك يضع خبرته الفنية تحت تصرف بلده والكيميائي كذلك وهم جميعا يشعرون بأن هذه الحرب تتوقف نتيجتها إلى حد بعيد على المقدرة الفنية والعلمية للأمم المتحاربة .

فالعلماء إذن قد خرجوا من صوامعهم مختارين أو مرغمين واختلطوا بتيار المجتمع في أعنف صورة وأشدّها اتصالا بعمترك الحياة ، وإذا وضعت الحرب أوزرها نهل يعقل أو ينتظر أن يعود كل واحد من هؤلاء إلى عمله وينسى ما رآه وما سمعه وما خبره بنفسه في هذه الحرب الطاحنة كان لم يكن شيء من ذلك أو كأنه حلم مفزع قد انقضى ، أم أن الذي ننتظره هو العكس ، فالعلماء وهم قوم ذوو بصائر لن تسمح لهم ضمائرهم ولا عقولهم بأن يتكروا العالم يتعرض مرة أخرى لمثل هذه الفاجعة دون أن يحركوا ساكنا وعلى الخصوص لأنهم يدعون أن العلم والاختراع مسئولان إلى حد كبير عن كثير من الازمة والتدمير والمآساة التي تعود الحركة التي بدأت قبيل الحرب والتي أشرت إليها إلى الظهور بشكل أوسع وأن يكون لها أثرها الفعال في تنظيم التعاون بين الأمم ولا شك في أن العلماء إذا هم تساندوا في أقطار الأرض وتعاونوا فإنهم قادرون على أن يحولوا بين ذوى المطامع والشهوات من رجال السياسة والمسالك وبين التفك بالمجتمع ، أول إذا تساندوا لأن هذا شرط أساسي لجناحتهم فالعلم يملك السلاح الذي يستطيع به أن يدافع عن قضية الحق والعدل والفضيلة ، ولا شك عندي في أنه في آخر الأمر متصمرا على قوى الظلم والجهالة والاستعباد ، ولا أستطيع أن أتنبأ بالشكل الذي سيتخذ تيار الحوادث في هذا الصدد. ولكن من المتصور على سبيل المثال أن تصير الهيئات العلمية في العالم على منع كل عايب من استخدام نتائج العلم للإضرار بالبشر ، فإذا اتخذت هذه الهيئات موقفا حازما إزاء هذا الموضوع الخطير فإنها ولا شك تستطيع أن تضع الأمور في نصابها إذ أن إراى العام في العالم كله سيكون في جانبها ، كذلك تستطيع هذه الهيئات أن تحرم على كل مشغل بالعلم أن يقوم لحسابه الخاص أو لحساب شركة أو حكومة بالاشتراك في أى عمل أو اختراع يرمى إلى التدمير والتخريب ويكون شأن العالم في ذلك شأن الطبيب الذي لا يسمح له الهيئات الطبية باستخدام علمه وفنه في الإضرار بالناس ، وعندى أن هذه الخطوة وبما كانت أول خطوة ينبغي اتخاذها بعد هذه الحرب لتوجيه العلم والعلماء نحو التعاون العالمى .

أشرت في أول حديثي الى أن التعاون على مقياس دولي أساسه التعاون داخل كل أمة فيما بين أهلها ويمس بنا في مصر أن نذكر هذه الحقيقة إذا كنا نريد حتما أن نقوم بنصيبنا في الجهود الدولية . فالكلام الذي قدمته عن التعاون بين علماء الأمم يقتضى أن يكون في كل أمة هيئات علمية تمثل التعاون بين علماء هذه الأمة كما يجب أن تتعاون الهيئات داخل الأمة الواحدة وأن يكون لها نظام مشترك يوحد بين مجهوداتها ويحدد أهدافها ووسائل تعاونها . وفي مصر هيئات علمية نشأت أو أنشئت من حين لآخر وهي تقوم بمجهودات مختلفة في ميادين العلم المتعددة إلا أن هذه الجهود لاتزال في حاجة الى تنسيق وتوجيه وتنظيم . فنحن في حاجة الى مجمع علمي تمثل فيه مجهوداتنا المبتكرة وأبحاثنا في ميادين العلم المختلفة . نحن في حاجة الى هذا المجمع إذ بدونه لا يمكن أن يقال إن لنا حياة علمية قومية وقد شرحت هذه النقطة في محاضرتي التي ألقيتها من هذا المكان في العام الماضي عن المستقبل العلمي في مصر . ونحن في حاجة أيضا كما ذكرت من قبل الى حياة تنظم العلاقة بين العلم البحث أو الأكاديمي وبين العلم التطبيقي في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وغيرها . كل ذلك قد شرحت في محاضرتي الماضية فلا حاجة بي الى أن أكرر القول . فتتظم الجهود الداخلى أساس كل تعاون خارجي وكما أن الرجل الذي يعيش في بيت غير منظم لا يستطيع أن يكون منتظما في علاقاته مع الناس كذلك الأمة التي لاتنظم بيتها لايتأثر منها أن تتعاون . وانا متيجا في نظام عالمي . أما إذا نظمنا أمورنا العلمية على النحو الذي أشرت اليه فاننا نستطيع أن نوجه العلم والعلماء بيننا في الاتجاهات التي يبتها وعندئذ يتعاون علماءنا وعلماء غيرنا من الأمم لتحقيق تعاون عالمي ما

على مصطفى مشرفه

عميد كلية العلوم

التصوف

ليس التصوف لبس الصوف ترقيه ولا بكاؤك إن غنى المغنونا
ولا صياح ولا رقص ولا طرب ولا اختباط كأن قد صرت مجنونا
لكننا هو أن تصفو بلا كدر وتعرف الحق والقرآن والدينا